مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
724 – 708 :(2024) 1 العدد 17 المجلد ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: 2588-1892

صورة المرأة في رواية ضياع في عُرْض البحر لحفناوي زاغز

The Image Of The Woman In The Novel "Loss In The Sea" By Hafnawi zagiz

نور الهدى قادري[1] ، صالح جديد[2]

1- جامعة سكيكدة(الجزائر) ، كلية الآداب واللغات، مخبر التراث والدراسات اللسانية
nh.kadri@univ-skikda.dz

2- جامعة الطارف(الجزائر) ، كلية الآداب واللغات، مخبر التراث والدراسات اللسانية
djedid.salah@ymail.com

تاريخ الاستلام:10-09-2023 تاريخ القبول:04-02-2024 تاريخ النشر:06-06-2024

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع تمظهرات المرأة في رواية"ضياع في عُرض البحر" لحفناوي زاغز، والكشف عن جمالية تصوير الكاتب لها، وستقتصر على دراسة صورتي المرأة الغامضة والمرأة الصديقة، باعتبارهما صورتين رئيستين لهما علاقة بشخصية"سنان" التي دارت عليها أحداث الرواية.

فقراءة الرواية تكشف عن صورة المرأة الغامضة، والمرأة الصديقة، والمرأة اللغز، والزوجة المتسلطة، والمرأة العجوز، والأم، والأخت...، ومن أهم ما خلصت إليه عملية القراءة أن المرأة والمخدرات كانا سببا من أسباب الضياع والهلاك.

كلمات دالة : المرأة, الجمالية, القراءة, الغموض, حفناوي زاغز.

المؤلف المرسل: نور الهدى قادري: no.nour222@gmail.com

Abstract:

This Study Aims To Trace The Woman's Manifestations In The Novel "Loss In The Sea" By Hafnawizagiz, And To Reveal The Aesthetic Ways In Which The Writer Portrays Her. The Study Will Be Limited To Studying The Two Images: The Mysterious And The Friendly Women, As They Are Two Main Images Related To The Character Of "Sinan" In Which The Events Of The Novel Took Place. Reading The Novel Reveals The Image Of The Mysterious Woman, The Friendly Woman, The Enigmatic Woman, The Domineering Wife, The Old Woman, The Mother, And The Sister. However, One Of The Most Important Conclusions Of The Reading Process Is That The Novel Showed That Women And Drugs Were A Cause Of Loss And Destruction.

Keywords: Women; Aesthetic; Reading; Ambiguity; Hafnawyzagiz.

مقدمة:

يعد "حفناوي زاغز" من الروائيين الجزائريين المغمورين، رغم أنه خلّف أعمالًا أدبية سردية رصينة البناء، عميقة الرؤيا، فكتاباته تتميّز بانفتاحها على الواقع والمتخيّل، وتمتزج فيها الغاية بالجمال، وتتداخل في بنائها بنيات وآليات تعكس هواجس الكاتب. فالقارئ لأعماله يقف على مقصدية الكاتب، ودقّة انتقائه للمكان والزمان والشخصيات، ويستعذب شعرية اللغة، وبراعة الوصف وحوارية النصوص...

إن الشخصيات في روايات "زاغز" تمثّل المحرك الدينامي لسير الأحداث، فطريقة توظيفها وتشكّلها، ووصفها، وتفاعلها مع الزمان والمكان، وتناميها بتسلسل يتوافق مع الأحداث وثرائها وغناها؛ ذلك أنها تتّصل بجميع شرائح المجتمع(أطفال، شباب، شيوخ، رجال، نساء، فقراء، أغنياء، نخبة، عوام...)، ممّا يجعلها محور الدرس والتحليل.

تسعى هذه المقالة إلى دراسة صورة المرأة في رواية " ضياع في عُرْض البحر"، وذلك بالتركيز على صورتين فقط هما: صورة المرأة الغامضة التي تمثّلها "ديانا" وصورة المرأة الصديقة "زينا" التي تمثّل الوضوح، وبالاستناد إلى منهج التقابل. وتحاول الدراسة، كذلك، الكشف عن مدى تأثيرهما على شخصية البطل "سنان"، ومدى إسهام كل واحدة في إضافة حلقة من سلسلة الضياع النفسي والضياع الحقيقي الذي عاشه البطل.

ولمعالجة الموضوع وتحقيق الأهداف المرجوة، جاء في الدراسة عرض مضمون الرواية؛ بغية الوقوف على تحرير وتقرير الروائي لفكرة الضياع، في محاولة لربط المضمون بالعنوان، والإجابة عن السؤال التالي: هل هو ضياع في عُرض البحر أم بحر الضياع؟

واشتملتْ، أيضا، على صورة المرأة الغامضة، واستدعى الأمر الوقوف على الغموض وأكنافه النصية، وكذا الوقوف على الموعد الغامض الحاسم، باعتباره موعدًا لفكّ الغموض المهيمن على شخصية"ديانا"، وتناولت الدراسة بعد ذلك صورة المرأة الصديقة، باعتبارها تقابل صورة المرأة الغامضة، وتطرقت إلى الصداقة وأكنافها النصية، واقتضى تناول موضوع المرأة الصديقة التعرض إلى الرحلة التي دعت إلى هذه الصداقة، باتخاذ العنوان التالي(نهاية الرحلة أم رحلة النهاية !!) في إشارة إلى عبارة "سنان"صداقة تنتهي بنهاية الرحلة. ورحلة النهاية إشارة إلى مصير الباخرة بعد موت الرُّبّان ومساعديه.

1. أضياع في عُرض البحر أم بحر الضياع؟

تدور أحداث رواية "ضياع في عُرض البحر" حول الصحفي "سنان" الذي هاجر إلى بلاد الغربة بحثًا عن حياة أفضل، وبحثًا عن مصداقية أكثر لمهنته، إلا أن رجاءه خاب، فقرّر الرجوع إلى وطنه بعد سنوات من الضياع، وقد جاء اختزال أحواله ومسار رحلته في الرواية على لسانه وهو يصف ضياعه وتشتّته: « سنان... صحفي مهزوم... بائع صحف مغترب، عائد فاشل...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 50) فالعبارة تصوّر أشكال الضياع التي عاشها باختلاف المكان والزمان؛ الضياع في الوطن، والضياع في بلاد الغربة، والضياع في المصير الذي انتهى إليه، فالهزيمة ضياع، والانتكاس(التّحوّل من صحفي إلى بائع صحف) ضياع، والعودة الفاشلة ضياع.

بدأت الرواية بتجهّز سنان لمغادرة أرض المهجر وركوبه الباخرة، فكانت حياته بين استذكار للماضي (لأصدقائه ومهنته)، وواقع حاضر في الباخرة على أمل وصولٍ آمنٍ إلى الوطن. وقد كانت شخصية المرأة الغامضة ماثلة في ذكريات "سنان" في تعاقب زمني؛ فرغم لقائه بـــــــ"زينا" التي تعرّف إليها في الباخرة إلا أنه ظلّ يستذكر "ديانا".

2. صورة المرأة الغامضة:

يَبْرُزُ هذا المظهر في شخصية "ديانا"، فالكاتب جلّى صورتها عبر تقنية الاستذكار، التي هي« شكل من أشكال الرجوع إلى الماضي للتعريف بالشخصية وما مرّ بها من أحداث أو التعريف بشيء من الأشياء أو سوى ذلك... » (نور الدين السد، 2010، صفحة 191) فقد كان "سنان" كلما بقي وحيدًا أخذ يستذكر الأحداث التي وقعت له مع "ديانا" التي كان تعامله معها سطحيًّا، يقول: «كانت تتردد لاشتراء جريدتها المسائية كل يوم قبيل موعد الإغلاق بربع ساعة... مجرد زبونة تقبل وتمضي... تدفع وتأخذ... لا ترفع عينيها... لا تلقي بتحية(...) كنت أقول لنفسي إنها نوع نادر من الفتيات يمكن لكل بلاد الدنيا أن تزعم ـــ بأنها منها، أن لها فضل إنتاجها... كنت مع مضي الزمن أرى فيها آية سماوية، إعجازًا ربانيًّا يكفي الأرض فخرًا أنها موطئ قدميها...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 45)

وما فتئ أن تحوّل ذلك التعامل السطحي إلى حبّ وافتتان عبّر عنه بقوله:« ديانا ... تلك الفتاة التي جعلتني في لحظة ما من الزمن الأرعن الجشع أؤمن بأن الحُبّ حقيقة ثابتة كالضوء والهواء والحرارة والبرد ... »، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 45) وانطلاقًا من ثنائية الخطاب البيّن والخطاب المضمر، إذ « يقصد من التكلّم بشكل بيّن((أن نتحدّث عن أمر ما))، في حين يراد من التحدّث بشكل مضمر((أن نوحي لأحد الأشخاص بالتفكير في أمر ما)) ». (كاترين كيربرات– اوريكيوني، 2008، صفحة 40)

فالخطاب الاستذكاري، الذي تقدّم عرضه، يضمر أن التمنّع كان مدخل الإعجاب والافتتان والتعلّق، وتحيلنا بعض المقاطع أيضا إلى أهمية التساؤل والتحري في القضايا وسائر الأمور، ومنها بناء العلاقات وكشف الغموض، مثلما قرّر "سنان" ذلك وأقرّ به في مواضع كثيرة، فهو القائل:« لم أكلف نفسي قط التساؤل عن جنسيتها بالرغم من جمالها المذهل، وفتنتها التي تتجاوز حدود المعقول...لا تكاد تجزم بانتمائها إلى أي بلد..». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 45)

وتحظى الألفاظ بدور بالغ الأثر في خدمة النسيج النّصّي، يرى "سعيد علوش" في حديثه عن "الكلمات والأشياء النثرية" أن« فهم النص الأدبي، أن نتساءل عن استراتيجية الإنجاز السيميائي، الذي يسمح بالعبور من مادة الكتابة إلى الدلالة التي تظهر في شكل فعل

القراءة، وهو فعل يظهر سهلا في الظاهر، إلا أنه معقد في عمقه...»، (سعيد علوش، 1985، صفحة 17) وخَلُص، بعد إشارته إلى الجانب الفيزيولوجي لعملية القراءة، إلى أن القارئ لا يبحث عن الأشياء في الكلمات، أكثر ممّا يبحث عن كيفية عملها وتكوّنها. (سعيد علوش، 1985، صفحة 18)

ومن هذا المنطلق، فلحظة إيقاع "ديانا" بـــــــــــ "سنان" تستوقفنا بألفاظها النّفاذة المعبّرة عن الوقوع، ويستوقفنا أيضا تلاعب الكاتب باللغة؛ تلاعب يصوّر تلاعب "ديانا" بمشاعر "سنان" وسيطرتها عليه، فقد جاء في استذكاره «...ويكفي الجمال تيها أنها خلاصة قدرته على الإبداع... ومضت الأيام... حتى كان يوم وصلت في موعدها لكنها لم تجد الجريدة المسائية...نفدت قبل الأوان ...رمتني بنظرة... أحرقتني بلهبها، اضطربت لقساوة وقعها...طعنة قاتلة اهتززت كمجرم غير متعوّد وجد نفسه أمام حبل المشنقة دون محاكمة أو دفاع...مضت ظننت أنها لن تعود أبدا. جاءت في اليوم الموالي لم تجد الصحيفة في موضعها...كانت قد نفدت ... لكنها فوجئت أن استخرجت لها صحيفتها من الدّرج...أهرقت في عيني نظرات... انسابت في جوارحي كالخدر...كالسحر...تركتني كالمنوّم أسبح في بحار سماوية الزرقة...أثيرية الموج...أزلية الصفاء، قدسية التأثير...». (حفناوي زاغز، 2009، الصفحات 45–46)

فالرمي، والإحراق، والطعن، والشنق، والسحر كلها ألفاظ توحي بالعجز والاستسلام، وجسّد الكاتب تلاعب "ديانا" بمشاعر" سنان" باعتماده على ألفاظ توحي بالتأثير وفاعليته نحو: انسابت، الخدر...، وتجلّى في العبارات أيضا، فعبارة "رمتني بنظرة"، والنظرة نفاذ، والنفاذ دخول في العمق. وكانت في البداية نظرة، وصارت نظرات، وانتهى الأمر بأن أهرقت في عينيه نظرات، مما يدل على التحوّل؛ تحوّل قابله تحوّل على مستوى النصّ، وهذا يصوّر حجم التأثير وفاعليته، وإلى جانب هذا، فالتشبيهات نحو: كمجرم، كالخدر، كالسحر، كالمنوّم تحتلّ هي الأخرى فاعلية في التعبير.

لقد كان التمنّع–كما سلف– مدخل الإعجاب والافتتان والتعلّق، وكان البعد أو الاختفاء مدعاة شدة التعلّق والولع، فأن تبهر وتغيب معناه أن تجعل الآخر يستجيب فيذعن، أن تجعله يتساءل، وهذا ما تقرّره المقاطع التالية: « في منتصف الشهر الأول من السنة الجديدة...يوم الاثنين لم تحضر أخّرْتُ موعد الإغلاق...لم تأت مضى يوم وثانٍ وثالث...

كنت كالمجنون أحادث نفسي أسائلها لم يسبق لي أن عشت لحظات اختفائها... اختفاء سريع غامض مروّع ومع ذلك لم أنس في زحمة الانفعال والحيرة والقلق أن أترك لها صحيفتها بالدرج، صرت لا أجد السلوى في غير الموسيقى الهادئة الحزينة...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 46)

فالغياب(عدم الحضور/الاختفاء/الفراق) أدى بـــــ "سنان" إلى التأخّر في موعد إغلاق الكشك؛ جعله كالمجنون في محادثة نفسه وسؤالها، ضاق صدره، طار صوابه من الانتظار. فإذا كان الحضور(حضور ديانا، جمالها، تمنّعها...) قد سيطر على عقله، فلم ينتبه إلى السؤال وفائدته في كشف الغموض، فالظاهر أن الغياب أحيا فيه ذلك، فقد جاء في الخطاب« كنت كالمجنون أحادث نفسي أسائلها ...»، وقوله: «كنت لا أفتأ أتساءل: أين هي...ولماذا اختفت... لها أن تختفي متى تشاء على ألا يكون حلّ بها مكروه». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 47)

وتؤكد أغلب الخطابات التي جاءت على لسان "سنان" تنظير المشتغلين بالتحليل السردي، فقد ذهبوا إلى أن تحديد هوية الشخصية الحكائية يكون بواسطة ثلاثة مصادر إخبارية: (حميد لحميداني، 2000، صفحة 51)

-ما يُخبِر به الراوي.

-ما تُخبِر به الشخصيات ذاتها.

-ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات.

فقول"سنان" «ضاق صدري بالفراق...طار صوابي من الانتظار...جنون أن تحبّ بلا أمل... شخصا لا تعرف له عنوانا ولا اسما...ولا حتى معارف أو أصدقاء...عرفت أن اسمها ديانا صدفة...» (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 46) يقرّر مفهوم الحبّ ومفهوم الجنون؛ فالحب نتاج التعارف، أما الجنون، كما جاء في الخطاب، هو "أن تحب بلا أمل "، فالجنون، هاهنا، جري وراء سراب.

فسنان مجنون مختلف عن غيره من المجانين(مجنون ليلى...)، فمجنون ليلى وغيره جُنّوا بمن عرفوا، لكننا في الرواية أمام جنون من نوع آخر وهو أن تحبّ شخصًا لا تعرف عنه شيئًا.

ويقرّر قوله « صرت لا أجد السلوى في غير الموسيقى الهادئة الحزينة...» "فكرة المهرب"، فما من ضيق أو أزمة إلا ويُنتظر من صاحبها البحث عن ملجأ أو مفزع أو ملاذ...،

وإذا كان الانتظار يقتضي اصطبارًا، فالرواية تقرّر هذا المعنى من خلال حديث "سنان" "ضاق صدري بالفراق...طار صوابي من الانتظار"، كما أن التنازل والتفاضل يبرزان من حديث "سنان" " لها أن تختفي متى تشاء على ألا يكون حلّ بها مكروه"، فكأن طول الغياب والاختفاء أدّى به إلى مزيد رشد، بأن يتنازل ويُؤثِر سلامتها مع اختفائها.

1.2.الغموض وأكنافه النصية :

لقد تقدّم القول بأن الغموض يكتنف "ديانا"، فهي تحضر(تظهر)حينًا، وتغيب(تختفي) حينًا آخر، ويصحب غموضَها جمالُ فتّان، عبّرت عنه المقاطع السابقة، ويضاف إليها قول سنان:« رأيتها مهيبة كبحر...صافية بعيدة كسماء...فاتنة أخّاذة كسحر...»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 47) ومخاطبته إياها «...لن يبلغ قمة جمالك مخلوق ولن يطمع في التشبه بك بشر...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 66)

ويصحب غموضها وجمالها الفتان خدماتُها التي عرضتها على سنان، فبعد لقاءات متكررة بينهما قرّرا الزواج، وكانت الحالة المادية لسنان تحول دون ذلك(بائع جرائد بكشك)، فحاولت مساعدته بالحصول على عمل بمساندة زوج أختها الثري(المزعوم). ويكتنف غموضها أيضا جملة من الأحكام أو الهواجس أو الأحاسيس التي أحاطت بسنان، فإلى جانب ما تقدّم من أنه كان يجهل موطنها الأصلي وأشياء أخرى عنها، فقد حكم عليها أنها شخصية قوية «ديانا امرأة قوية الشخصية، نافذة السلطان تعرف جيدا ما الذي تريد وماذا ينبغي عليها أن تقول أو تفعل». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 85)

والسؤال الذي يستوقفنا أمام هذا هو: ما مقامه أمام امرأة بهذا الوصف؟ !!!، فكأنه تقرير(وصف) لحالته أمام وصفها؛ تقرير لحالة الضياع التي يعيشها، فيمكن القول بأننا أمام سنان ضعيف الشخصية، باهت السلطان، لا يعرف ما الذي يريد وما الذي ينبغي أن يفعل !!!

ويُضاف إلى هذا هاجس عدم اطمئنان سنان لتصرّفاتها من ذلك تساؤله « من تكون "ديانا" ومن هي تلك الـــــ "أدوات" ماذا تشتغلان ولحساب من، ومن أي جنسية هما...»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 86) وكذا وصفه لمشهد لها غير متوقّع «كنت شاردا أفكر، بغتة كانفجار صاروخ لمحتها في الاتجاه المعاكس على الميترو الواقف في إحدى المحطات، كانت تضحك باستهتار مع شابين... أخفيت وجهي، تأمّلت المشهد جيدا. هي ورب

السماء.انقضت عليَّ كأسراب النحل شكوك في العلاقة في الموعد...في الغاية...في الشغل المزعوم». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 87)

ولعل المتأمل، لما سبق، يلحظ أثر الوصف الذي يقوم بوظائف مختلفة، فإلى جانب وظيفته الجمالية والسردية(تعطيل السرد) له وظيفة رمزية، بمعنى أنه يقوم بوظيفة دالة، وذلك حين يكون الغرض من الوصف تفسير موقف معين في سياق الحكي أو توضيح سلوك شخصية من الشخصيات. (محمد بوعزة، 2007، صفحة 96)

2.2.الموعد الغامض/ موعد فك الغموض(تبديد الوهم):

اختلفت وجهات نظر النقاد والدارسين حول الزمن في الرواية، فمنهم ربطه بالمكان (الزمكان)، ومنهم من جعله فضاءً، ومنهم من عدل عن الفضاء إلى لفظ الحيز، (عبد الملك مرتاض، 2010، صفحة 297) وعموما« يعد الإشكال الروائي في العمق إشكالا زمنيا من حيث هو سباق مع الزمان وصراع ضده على مستويات كثر. ولقد فرض هاجس الزمان نفسه على العلوم الإنسانية والدقيقة، وشكّل بالتالي معضلة متميزة في البحث المعرفي والإبداع الأدبي»، (أحمد فرشوخ، 1996، صفحة 79) ويُلحظ أنه أدى دورًا مفصليًّا في البناء السردي، فيمكن القول بأن بداية تفكيك "سنان" للغموض كان من لحظة طرح التساؤلات وقيام شكوك وحمل وساوس. ومع ذلك، فالاختفاء المفاجئ والمشاهد المريبة والخدمات المعروضة أسهمت في تبديد الوهم وتجلية الحقيقة؛ فقد دفعته إلى التحرّي، معتمدًا على صديقه"شاكر"، فالبداية غموض(بداية النص/ بداية العلاقة) والنهاية ظهور وبيان؛ المنطلق وهم، والمنتهى حقيقة. ويمثّل هذا الزمن(الموعد الغامض) زمنًا ظرفيًّا، ففي الأعمال السردية تؤثّر« الأزمنة الظرفية عامة على مسار الشخصيات...». (محمد فخر الدين، 1997، صفحة 57)

إضافة إلى ما سبق، فقد صارح "شاكر" صديقه "سنان" بعدم إمكانية التحرّي عن "ديانا "ورجل الأعمال "بول" قبل الموعد. فكان أن حان الموعد ولم يحصل التحرّي بعد، فقرّر "سنان" الذهاب للموعد الغامض المبرمج، وهو «كثير التوجّس والتفاؤل والحذر»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 88) وقد بذل الكاتب جهده من أجل أن يعبّر عن الغموض، فمن نظرة غامضة من "ديانا" إلى شعور غامض، يقفز إلى ذهن "سنان"، إلى تلقّي عرض العمل الغامض، ولمزيد من البسط نورد العناصر التالية:

1.2.2.النظرة الغامضة:

وصف الكاتب النظرة التي وجّهتها "ديانا" "لسنان" قبيل التحاق "بول"بالموعد بأنها «مليئة بعلامات الاستفهام والتعجب والاستنكار»؛ (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 90) حيث صرّحت ببعض الأمور التي ستتطابق مع تصريح "بول"؛ ابتغاء إيهام "سنان" بانسجام خطابهما، وبغية إغرائه وإغوائه، مما يوحي أن اللقاء وخطابه وتسيره مخطّط لهما، وسيأتي بيان دواعيها (النظرة الغامضة) وزمنها، وفيما يلي المعلومات المصرّح بها التي يمكن تشكيلها في المراحل أو الملابسات التالية:

2.2.2.خطاب دغدغة العواطف بغية السيطرة على المحاوَر :

يمكن وَسْمُ هذا الضرب من الخطاب بالخطاب التحضيري للموعد، ويتمثّل في العبارات والألفاظ وما صاحبها من حركات وطقوس حميمية قابلت بها "ديانا" "سنان" حيث وجدها وحيدة بالشقة، ومن تلك العبارات: (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 88) (تعجبني فيك الدقة والانتظام...مواعيدك في دقة غرينيتش/ قالتْ: إني أعبدك أقدس فيك الوفاء.../ الشرفاء أمثالك قلة، أين أولئك الذين يرون رأيك في قدسية الحب؟ / أرجو أن تظل كالعهد بك ...ذكيا متيقظ الحس...حاضر الخاطر...)

3.2.2.التساؤل وخطاب التعريف :

مثّل "سنان" جهة التساؤل، واضطلعت "ديانا" بخطاب التعريف، فقد كبح "سنان" جماح خطاب الدغدغة بقوله: «لا تغرقيني بفيض مديحك الذي أخشى أن يعقدني»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 89) ولاذ إلى السؤال قائلا: «دعيني أولا أرى هذا الرجل الذي أتخيّله من طينة أخرى غير طينتنا البشرية، أودّ أن أعرف إن سمحت مَن يكون... وماذا يريد مني بالذات وكيف تريدينني أن أكون معه». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 89)

وتجدر الإشارة إلى أن "ديانا" خلّلت مديحها بخطاب تعريفي "ببول" قائلة « سيحضر جلستنا هذه رجل الأعمال السيد "بول" إنه أكبر رجال الأعمال في الغرب والشرق، يملك مفاتيح الدنيا والآخرة...»؛ (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 89) وحين سُئلت أجابت« إنه أحد أقاربي تربطني به علاقة متينة... إنه زوج أختي الكبرى، حدّثته عنك كثيرا، صارحته برغبتي في الزواج منك. أحطته بوضعك المادي...فكان أن اقترح علي وهو صاحب

مشروعات كبرى في الشرق، أن يسند بعضها إليك بعد تجربة، بل قُلْ امتحان بسيط...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 89)

فالمتأمل في هذا المقطع وجمله القصيرة المتناثرة، حتى لا نقول اللامتماسكة؛ المعبّرة عن الإرباك، فمن زعمها أن "بول" قريبها، إلى استدراك بأنه زوج أختها، ومن كون "سنان" سيُعْرَض إلى تجربة، استدركت قولها بأنه سيُعرض لامتحان ووصفته بأنه بسيط. إلى إفضائها بأنها « فترة تربص...سريعة»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 90) إن استمرار "سنان" في السؤال، وبنمط إفصاحي مختلف قال فيه: «مزيدا من الضوء...إني لا أكاد أبصر أين أنا الآن...»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 90) وبخطاب إفصاحي متبادل بينهما انتهى بحمل "ديانا" على نظرة غامضة تجاه "سنان."

4.2.2.حضور السيد(بول) بين هالة المشهد وحضور الشراب:

عبّر الكاتب عن هالة المشهد التي رافقت حضور السيد "بول" بـــــ(شنطة سامسونيت من الجلد الأسود الثاني التي يحملها بول، شاب في حدود الخامسة والثلاثين يمسك بيسراه جريدة لوموند يدعى جون يمثل مساعده الخاص) وبالشروع في الشرب قام "بول" بحركة–متظاهرًا– عبّر عنها "سنان" بحديث في نفسه بأنها «حركة تفتقر إلى الذكاء...هدفه غوايتي. لماذا فعل ذلك»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91) وصوّر "سنان" ذلك التظاهر بقوله: «فجأة وكمن يبحث عن شيء قلم أو ورقة فتح الكهل شنطته...ظهر باطنها مكتظّا إلى حد الامتلاء برزم الأوراق الخضراء"دولار" ». (حفناوي زاغز، 2009، الصفحات 90–91)

لعل الكاتب يريد أن القصد من هالة المشهد هذه ومصاحباته التأثير على المستهدَف، وأن الشراب مهمّ في مثل هذه العمليات، فبعد الجلوس قامت "ديانا" بخطاب تعريفي موجز ركِبت فيه ظهر خطاب المدح ودغدغة العواطف « سنان صحفي ذكي» (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 90) ، وسارعت إلى الشراب بقولها في «لهجة ربة بيت: ويسكي، كونياك... باستيس. سكتت، أضافت: أما أنا فأشرب"سانزانو". قال الكهل: ويسكي دوبل، قال الثاني: إذا سمحت "كوكا كولا" تلفتت إلي... ليس هناك بيرة. قلت إذن باستيس...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 90)

ويبدو من خلال هذا المقطع الذي يستلزم معرفة بالخمرة وأنواعها وقوة تأثيرها، ونعلن عدم معرفتنا بهذا، فربما لو حصلت هذه المعرفة لظهر أثرها في التحليل، ولكن لامناص

من أن نطرح سؤالًا يتعلق بترتيب الكاتب لها، فهل ترتيبه لها موافق لدرجة قوتها في التأثير؟ إن مثل هذا يؤكد على أهمية "الكفاءة الموسوعية" التي ينبغي أن تتوافر لدى القارئ، فهي تمثّل« خزانا رحبا يضم معلومات خارجية تعبيرية أدائية تتناول السياق أو باعتبارها مجموعة معارف أو معتقدات...»، (كاترين كيربرات- اوريكيوني، 2008، صفحة 285) « تسمح بفهم ما تحيل عليه الكلمات». (دومينيك مانغونو، 2008، صفحة 49)

ونسجل، من خلال الموعد أيضا، أن المساعد الخاص اختار" كوكا كولا" على الشراب، فكأنها إشارة ضمنية من الكاتب أن المساعد يريد أن يحافظ على وعيه، وبدا انسجام أجزاء هذه الرواية في عود أو ارتباط تصريح "سنان" « شربنا تحكّمت في رغبتي للشرب، كنت متحفظا في القول مُركّز الانتباه» (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91) بتصريحه السابق« قرّرت الذهاب للموعد وأنا كثير التوجّس والتفاؤل والحذر»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 88) فالعبارة بالإضافة إلى عودتها على ما تقرّر سابقا، توحي أن التحكّم في الشرب بغرض التحفّظ في القول والحفاظ على الانتباه والتركيز.

لقد كشف "سنان" عن "التلقي الحسن أو التواصل الجيد" الذي اقتضى منه: التحفّظ في القول والتركيز الانتباه، والقدرة على الملاحظة، والمنهجية في التفكير والوصول إلى الأخبار، وأساليب الغربلة والتمحيص. (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91) فبهذه المنهجية في التلقي، قفز في ذهنه «شعور غامض» (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91) جعله يقدح ذكاءه، يرمي بشباكه لاصطياد الكلمات المدسوسة عمدا...الإشارات التي تأتي وكأنها عفوية ودونما تخطيط أو قصد. (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91)

وبهذه الأدوات زال الغموض، قال "سنان" «انبثق من الظلمة شعاع بدّد الركام، جعلني أرى رؤية اليقين – لست أدري كيف جاء هذا اليقين- إني بين أنياب عصابة تجسّس وتخابر». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 91) بدا واضحًا في النهاية أن "سنان" أدرك أنه متورط، فالحسناء التي ينوي الزواج بها مجرد أداة لاستدراجه إلى عصابة كانت ستقوده للهاوية، وهذا ما جاء في تذكّره "لديانا" «كدت أغرق في اليابسة»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 172) فطبيعة العمل الذي عُرض عليه –كما أسلفنا- مجهول، وبعد أسبوع من الموعد أخبره صديقه "شاكر "أن الأسماء التي كان يتعامل معها غير معروفة في جميع الأوساط. (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 39)

3. صورة المرأة الصديقة:

جاءت هذه الصورة في الرواية ممثّلة في شخصية "زينا" التي تقابل شخصية"ديانا"، فلقد اتّسمت شخصية "زينا" منذ البداية بالوضوح، سواء ما تعلّق بأهدافها أو ماضيها، ويوقف على هذا في تعريفها بنفسها «مغتربة... اختلّ حظّها... قرّرت العودة إلى الوطن الذي قيل لها أن به بعض أهلها دون أن تعرف أسماءهم ولا حتى لغتهم...»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 51) وجاء عنها في جلوس "سنان" متفكّرا « زينا لا أجد في نفسي ما يشدّني إليها. بالرغم من أنها تملك جمالا خاصًّا، سحرًا متميّزًا، لها قدرة عجيبة في الحديث، ذكية واسعة الإدراك والوعي... جريئة صريحة، إنها صيد سهل لمن يريد... كشفت عن نيتها عندما اعتبرتني مطيتها لنيل بعض مآربها في الوطن، المسكن، الشغل... سأجاريها كصديقة لا غير حتى نهاية الرحلة، ثم ينتهي كل شيء بنهايتها»، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 59) وإلى جانب ما جاء به هذا المقطع من أوصاف لها(متوسطة الجمال، قدرة على الحديث، ذكاء، سعة الإدراك والوعي، الجرأة، الصراحة...)، فقد وُصفت في الرواية أيضا بـــــــــــــ: حدّة الذكاء، قوة الشخصية، التمكّن من أساليب الدفاع عن النفس، الجهل بتعاليم الإسلام.

1.3.حدّة الذكاء :

جعل الكاتب "زينا" تتميّز بذكاء حادّ، فبدا القلق عليها والتوتّر منذ الوهلة الأولى، فعندما أدركت أن الباخرة لا تتحرّك، استشرفت وقوع المصيبة، فقد جاء وصف "سنان" قائلا: قال مرافق منصور: «ألم تلحظوا أن الباخرة لا تتقدّم ولا حتى تتأخر...إنها لا تسير إنها تتمايل فقط(...) قلت في ذاتي لعل زينا كانت ترى ما لم نره، إذن كان قلق الناس بسبب التأخير(...) قالت كل شيء يهون إذا ما استأنفت الباخرة سيرها...قد مضت فترة من الوقت وهي تتأرجح كأن لا ربّان لها». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 96)

وممّا يدلّ على حدّة ذكائها أيضا تعقيبها(زينا) على قول الرجل الذي استنكر عدم وجود الشرطة في الباخرة «الحق مع الرجل هناك عدة جرائم...ولعل التوتّر واليأس قد يفضيان إلى جرائم إلى أخرى... »، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 110) وذاك ما حدث فعلًا، فباتت الباخرة وسطًا للسرقة والقتل.

2.3.قوة الشخصية :

أظهر الكاتب قوة شخصية "زينا" من خلال إبائها بالرغم من حاجتها للمال، فقد رفضت أن تكون مستغلّة، وغيّرت رأيها في منصور الغني صديق "سنان" متصدِّية له. «- مسكين...مغرور حاول أن يستغلّ حاجتي إليه. معرفته بوضعي المادي والاجتماعي، جعلته يتجرأ على المحاولة(...)

-ولكنه لم يتجاوز معك حدّ القول...وأنتِ في هذا أقوى...

-وليته مدّ يده حينذاك كنتُ كسرتها وانتهى الأمر... ». (حفناوي زاغز، 2009، الصفحات 96-97)

3.3.التمكن من أساليب الدفاع عن النفس :

تجلّى ذلك في تدخلّها بين الرجل وعشيقته، فقد حاول الرجل إرغام عشيقته على رجل آخر لأجل ماله، فكان أن ضربته "زينا" «لما رأيته يضربها تدخلّت شتمته، أهنته بأوسخ ما عندي من الكلمات التي يفهمها أمثاله، فكان أن حاول مهاجمتي وهو يلوح بإحدى يديه في وجهي... وفي حركة خاطفة جعلته ينبطح على بطنه كبطّة ذبيحة، حاول أن يقف لكني أبيت إلا أن يبقى مكانه بضربة صاعقة من رجلي اليسرى... جعلت أحملق فيها بدت لي شخصًا آخر... غير تلك المغتربة البائسة، أضافت أتدري أن الفتاة التي انتصرت لها ارتمت على لتنهشني بأظافرها... لم أشأ أن أكوّمها فوق عشيقها التافه... وإنما صرخت في وجهها صرخة تركتها تجهش منتحبة ». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 83)

4.3. الجهل بتعاليم الإسلام :

بدا في الرواية أن "زينا" لم تكن ذات ثقافة دينية، فأبسط الأمور لم تكن مدركة لها نحو: حرمة الخمرة، ويظهر ذلك أيضا في جنوحها إلى المخدرات، وسؤالها "لسنان" عن معنى الشرف، ففي لحظة وقوف حركة الباخرة بموت الرُّبّان ومساعديه وتخريب غرفة التحكّم، قالت" زينا" "لسنان "بعد الحوار الذي دار بينهما حول التفكير في الموت والأمل في النجاة من المخاطر:

«-هل لديك بعض النبيذ؟

-المقبل على الآخرة يفكر في الشهادة والعمل الصالح.

-وهل تراني ارتكبت إثما ...

-الخمر حرام

- لم تقل لي ذلك من قبل و لم أرك تقلع عنه.

-أنا لم أفكر في الموت مثلك

-لعل في الخمر بعض الأمل الذي يمنحني القدرة على المقاومة». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 135)

يبدو من خلال هذه الرواية أن "زينا" (المرأة الصديقة) هاربة من واقع مؤلم إلى واقع آخر مجهول؛ هاربة من ضياع كابدته بأرض المهجر إلى مكان لا تتقن لغة تَخاطُبِه، لا تعرف شيئا عن أهلها، آملة أن تجد ملاذًا آمنًا، مسكنًا، وظيفةً، فقد صرّحت بذلك "لسنان" «حسبي أن تساعدني في الحصول على عمل ومسكن لدي شهادة خبيرة محاسبة... بملاحظة ممتازة... تجربتي غير طويلة سنتان ونصف، سدّدت من دخلي المتواضع بعض ديون أمي... وبعد موتها ببضعة أشهر بعت كل شيء وقرّرت في لحظة لا أعرف كيف أصفها...العودة إلى الوطن الذي أسمع به ولا أعرف حتى موقعه من خريطة العالم... ». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 56)

فقد عاشت "زينا" في أرض المهجر حياة بائسة بين والِدَيْنِ مغترِبَيْن غير منسجِمَيْن، فأمها ماتت كمدًا وحسرة، أما الوالد فكان رجلًا تافهًا سيئًا، انتهى به المطاف إلى السجن لمتاجرته بالممنوعات، وشقيقها الوحيد الذي لم تعرفه فرّ من بطش والدها « سمعت أن لي أخًا لكني لم أره، قالت أمي أنه فرّ لم يطق الحياة مع والدي... كان يقسو عليه، يعامله كحيوان... يضربه بأي شيء يقع تحت يده ». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 55)

إذا كانت هذه المقاطع تصوّر الضياع الذي عاشته "زينا" وعائلتها في التعامل والسلوك، فقد صوّر الكاتب ضياعًا من نوع آخر هو الضياع في اللغة والتواصل، فوالدا "زينا" كانا لا يتكلمان بالعربية إلا في المشاجرة، فكأن اللغة الأجنبية لا تتلاءم والتعبير عن الشتائم والغضب والعراك، فأي ضياع أن تُقْبِلَ زينا على وطن لا تعرف موقعه على خريطة العالم، ولا تعرف من لغته إلا بعض ما يقال في السبّ والشتائم... !!! جاء في الرواية على لسانها: « لا أفهم كلمة واحدة من اللغة العربية. كنت في الماضي أحفظ بعض كلمات ممّا كان يقال بين والديّ خلال خصوماتهما... حدث أن تظاهرت مرة أمام بعض الزميلات المغتربات ببعض

تلك الكلمات... فقالت لي إحداهن... من العار أن تردّد فتاة مثلك هذه الأقوال البذيئة التي يخجل أن ينطق بها حتى الذكور... فكان أن امتنعت عن ترديد ما أسمع... مهما كان مصدره ...». (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 55)

5.3.الصداقة وأكنافها النصية:

سبقت الإشارة إلى أن "سنان" في تفكّره عزم على اتخاذها صديقة تنتهي صداقتها بنهاية الرحلة، ويمكن القول بأن الباعث الذي أوجب هذه الصداقة هو اتفاق الحالين(حال سنان وحال زينا)، فكلاهما عانى من الوحدة والغربة في الباخرة وقسوة الحياة في الغربة، فكأن كل واحد منهما يقرأ ذاته في الآخر، وأن توحّش الحضارة الغربية لم يسلم منه رجل ولا امرأة.

6.3.نهاية الرحلة أم رحلة النهاية !!

إن تغيّر منحى الحياة في الباخرة قابله تغيّر في مسار الرواية، فإذا كان "سنان" لا يملك سكنًا خاصًّا في أرض الوطن ولا مال له، فالمسجّل أنه لم يَعِدْ "زينا" بشيء، فكأنه مؤشّر على أن الرحلة المقدّرة تدوم يوما أو يومين لا أكثر فبعد حفلة كبيرة صاخبة مليئة بأنواع الخمور وألذّ المأكولات أُقيمت على شرف "ماري عروس البحر" وقع ما لم يكن في الحسبان، إذ انتهت الحفلة بجريمة قتل، أربعة جثث (ماري، شعبان ربّان الباخرة، مساعدوه)، فاختلّت القاعدة، وتحقّق توقّع "زينا" التي قابلت تهوين "سنان" عليها « لكل باخرة أكثر من ربّان وقد شاهدت اثنين من المساعدين في الحفل، أنهم يحتاطون لكل شيء، التموين، الوقود، العلاج... تحسّبًا للطوارئ وتوقعًا للمفاجئات. قالت متنهّدة: ولكن قد تختل القاعدة يوما... أرجو أن تكون هذه المرة... »، (حفناوي زاغز، 2009، صفحة 96) ويمثّل هذا الزمن(زمن الرحلة في السفينة) زمن الانتظار، وهو الزمن الذي «يتخذ طابعًا نفسيًّا داخل الرواية ويحدث فيه التداخل بين الحاضر والماضي والمستقبل». (محمد فخر الدين، 1997، صفحة 57)

وعموما، فالروائي جعل نهاية روايته مفتوحة؛ نهاية مزج فيها بين الحقيقة والخيال، فوجدنا أنفسنا بين غرق ونجاة؛ موت وحياة، فبعد أن صوّر لنا غرق الباخرة في الحوار الدائر بين "سنان" و"زينا" أعقبه باستيقاظ "لسنان"، وجعله يصف العالم من حوله ويقرّر جملة من المفاهيم، حتى إن القارئ يذهب إلى أن الروائي مختفٍ خلف شخصية "سنان" ليحقق جملة من المقاصد.

خاتمة:

لقد اقتصرت هذه الدراسة على صورتَيْ المرأة الغامضة المتمثّلة في "ديانا" والمرأة الصديقة المتمثّلة في "زينا"، باعتبارهما شخصيتين رئيستين لهما علاقة بشخصية"سنان" الذي دارت عليه أحداث الرواية، وخَلُصت إلى أن الرواية تُظهر أن المرأة والمخدرات كانا سببا من أسباب الضياع والهلاك، وأن هناك صورًا أخرى عرضية للمرأة لم تكن لها علاقة "بسنان"، ولعل دراسات أخرى تخصها بالتفصيل، وجملة تلك الصور هي:

-المرأة اللغز: المتمثلة في (ماري عروس البحر)، فهي لغز من حيث مقتلها وتزامنه ومقتل ربّان الباخرة ومساعديه، والحفل المقام على شرفها أم لقتلها، ودلالات مقتلها وتباين الاستنتاجات بشأن مقتلها، وعموما، فيبدو أن بمقتلها تغيّر مسار الرحلة والرواية معا .

-المرأة المتسلّطة: تمثّل هذه الصورة "زوجة دادي"؛ امرأة أجنبية متزوّجة بمهاجر(مغترب) ينحدر من بيئة ريفية، غير مثقف ولا متعلّم، شخصيته مهتزّة ضعيفة(ينظف البيت، يغسل الأواني، يرتب الغرف، يعتني بالكلب والقط...، والزوجة مسيطرة على كل شيء، لا ترعى حقوق الآدمية في زوجها... وما إلى ذلك من مظاهر التسلّط والازدراء، ولقد ضمّن الكاتب موقفه من شخصية "سنان" الذي استهجن هذا النوع من الزواج اللامتكافئ .

-المرأة الأمّ: من المواطن التي جاء فيها ذكر الأمّ موطن الحديث عن المرأة المتسلّطة، فابن دادي متنكّر لوالده، غير راضٍ باهتزاز شخصية والده مع أمه. ومن ذلك أيضا أمّ "زينا" المرأة المهاجرة المغتربة التي عانت من التفكّك الأسري، الذي جعلها تموت كمدًا.

قائمة المراجع:

- أحمد فرشوخ، جمالية النص الروائي – مقارنة تحليلية لرواية لعبة النسيان (الإصدار 1)، دار الأمان، الرباط– المغرب، 1996.
- حفناوي زاغز، ضياع في عرض البحر (رواية)، دار الحكمة، الجزائر، 2009 .
- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي (الإصدار 3)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء –المغرب، 2000.
- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح للتحليل الخطاب (الإصدار 1)، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون– منشورات الاختلاف، بيروت لبنان – الجزائر، 2008.
- سعيد علوش، هرمنوتيك النثر الأدبي (الإصدار 1)، دار الكتاب اللبناني – سوشبريس، بيروت، لبنان – الدار البيضاء، المغرب، 1985.
- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي (الإصدار 2)، دار هومة للبطاعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- كاترين كيربرات– اوريكيوني، المضمر (الإصدار 1)، تر: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة –مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، 2008.
- محمد بوعزة، الدليل إلى تحليل النص السردي– تقنيات ومناهج (الإصدار 1)، دار الحرف للنشر والتوزيع، القنيطرة – المغرب،2007.
- محمد فخر الدين، الريح الشتوية: عن بنيات السرد واللغة والمتخيل (الإصدار 1)، فضاءات مستقبلية– مطبعة وليلي للطباعة والنشر، مراكش– المغرب،1997.
- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد الحديث– تحليل الخطاب الشعري والسردي (المجلد 2)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.